المحاضرة الخامسة

الآخِرة والحساب فى الفكر المصرى القديم

نصوص التوابيت:

توجد فى نصوص التوابيت كذلك آراء متضاربة حول مصير الروح النهائى، والتى يمكن أن ترتقى إلى السماء لتستقل قارب المعبود رع، أو أن تحيا فى عالم الموتى مع المعبود أوزيريس .

تجدر الإشارة كذلك إلى أن عملية الانتصار على الأعداء فى نصوص التوابيت تكشف عن نوع من أنواع المحاكمة للمتوَفَى، مُتمثلةً فى نجاتهِ أو هلاكه أمام إحدى العقبات التى تُقابله فى العالم الآخر، وليس مجرد توجيه بعض الاتهامات للشخصِ المتوَفَى عليه أن يُنكِرُها، حتى يُنهى المسألة وينجو وِفقاً لذلك (كما هو الحال بالنسبة للمحاكمة فى الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى).

لعل الأمر بالنسبة لنصوص التوابيت فيه سَعة لدراسة موضوع الحساب الأخروى ، تختلف أو بالأحرى تفوقُ ما كان عليه الحال بالنسبة لنصوص الأهرامات، فهذه الأخيرة هى لا ريب نصوص ملكية مقدسة، وعليه لم يكن بمقدور كتبتها أن يتوسعوا فى حرية الحديث عن مواضيعٍ تخص العقبات التى تواجه مليكهم خلال رحلة صعودهِ إلى السماء، أما كُتاب نصوص التوابيت فقد كان بإمكانهم العرض لمثلِ تلك الموضوعات بتفصيلٍ أدقُ وأشمل.

غير أنه بالرغمِ من ذلك فإن نصوص التوابيت لم تكن مصحوبة بنصوص توضيحيةٍ تمكن من مقارنة النصوص بما يُماثِلُها من مناظرٍ لحياة هذا العالم كما تخيلها المصرى القديم ، وبأسلوبٍ مُباشر، اللهُمَ إلا الجزء الأخير من تلك النصوص، والذى اصطُلِح على تسميته " كتاب الطريقين " ، فهو بداية التصوير أو بداية ظهور مناظر تصحَبُ النصوص فى المصادر المصرية على الإطلاق ، والذى هو الجزء التالى من هذه الدراسة.

غير أنه وكيفما كانت هذه الصعوبات فإن نصوص التوابيت تُعد من أثرى المصادر المصرية القديمة وكذلك أَضخَمها، وَوِفقاً لما تَيَسَر لكتبتها من حريةٍ فى التعبيرِ عما يؤمنون به من مخاطرٍ تواجهُ المتوفى خلال سفره إلى الغرب، فإن نصوص التوابيت قد اشتملت – كما

سنرى فيما يلى ذلك – على العديد من المخاطر التى استمر الكثير منها مستخدماً فى المصادر التى تلت عصرها، كما فى كتاب الموتى وغيره من الكتب الدينية من عصر الدولة الحديثة.

فلقد تميزت المصادر الدينية من عصر الدولة الوسطى ، سواءً فى نصوص التوابيت أو الجزء الخاص بمناظر ونصوص كتاب الطريقين _ كما سنرى فيما يلى ذلك من أقسام الدراسة_ باشتمالها على العديد من مظاهر طبوغرافية العالم الآخر، بالاضافةِ إلى مُراقبوا طرق هذا العالم الآخر. ففى غيرِ ما موضعٍ من نصوص التوابيت يذكر مُرشد العالم الآخر أنهُ على المتوفى الذى صُممت لمصلحتِهِ تلك النصوص ألا يسلُكَ الطرق التى يقومُ عليها الشياطين من مراقبوا الطرق ، والذين وُصِفَ العديد منهم بأنهم مُسلحين بالسكاكين.

استمر كذلك فى نصوص التوابيت استخدام الوسائل المتنوعة لصد الأذى فى مملكة الموتى، من ذلك الحيلولة دون عجز المتوفى عن ذكر الصيغ السحرية التى يستخدِمُها فى مواجهة عقباتِ العالم الآخر بالختمِ على فمه، وكذلك عدم حرمان المتوفى من التنفس بالأساس، فكلا الأمرين نتيجتهما واحدة وهى الموت المحقق فى العالم الآخر، ومن ثم الهلاك الأبدى للمتوفى، والذى بالطبع لن يتمكن من الوصول إلى مقر المعبود أوزوير.

أضف إلى ذلك أن عملية فتح الفم هذه هى بالأساس من الطقوس أو الشعائر الرئيسية التى كان يُعنى بها المصريون القدماء، سواءً قبل دفن الجثة، أو فيما يلى ذلك فى النصوص التى سوف تُرافق المتوفى فى رحلته إلى العالم الآخر.

فلاريبَ أنَ العالم الآخر هو مكان خصب للهوام من الشياطين والمردة التى تفتك بالموتى الهالكين، ومن ثم فقد وُجِهَت العديد من التعاويذ لصد هؤلاء الشياطين الذين يهددون المتوفى. ففى نصوص التوابيت تشير التعاويذ إلى بعض المهمات الشريرة التى يؤديها الشياطين ضد الشخص المتوفى " إنكم تقطعون الرؤوس، إنكم تقطعون الرقاب الخاصة بأعدائكم من الرجال والنساء، إنكم الذين تُقَّرِبون الآجال "، وغيرها من النصوص التى تُعَدِدُ أذى الهوام فى العالم الآخر.

كما يتبين من نصوص التوابيت أن المصريين القدماء عرفوا جحيم النار ، حيث ينتهى الفرد من الخاطئين أو يُلقى فيه كمذنبٍ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن فكرة الحرق بالنار لم تكن تُعدُ عذاباً أبدياً ، بل تدميراً تاماً، فمن يُحرقُ بها لا تُصبح لديه مقدرة على البقاء . حتى أن

روح البائس من الحياة قد سَوَلَت له أن يبحث عن الموت بالنار، فالروحُ نفسها لا تستطيع البقاء إذا ما أُحرق جسدها وتلاشى.

يتضح لنا مما سبق ذلك التشابه الواضح بين تعاويذ نصوص التوابيت ونظيراتها من نصوص الأهرامات فيما يتعلق بعقبات ومخاطر العالم الآخر، ذلك فيما عدا بعض المخاطر والعقبات التى ظهرت فى نصوص التوابيت للمرةِ الأولى. فهم _وكما كان الحال فى نصوص الأهرامات _ يَحرِصون على أن يُظهروا أنهم لم يُجبَرُوا على مفارقةِ الحياة أو الموت، بل ماتوا طِبقاً لرغباتهم. وكثيراً ما نجدُ المتوفى يتنصلُ من الآثامِ خشيةَ أن يناله كِفلٌ من وبالِها فى العالم الآخر.

كما أظهرت نصوص رغبةَ المتوفى فى أن ينأى بنفسه كفردٍ عن أن يتعرض للمُسَّائلة والعِقاب. كما ظهر لدينا فى نصوص التوابيت وللمرةِ الأولى العمل فى العالم الآخر كلون من ألوان العذاب والتكفير عن الخطايا، حيث أنه كان مُقَدَراً على كل من عصى المعبود على الأرض، وهو مُحَرَماً على الموتى المباركين السعداء، الذين أحسنوا فى حياتهم الدنيا، فهؤلاء لهم عُقبى الدار.

يتضح مما سبق أن نصوص التوابيت تُعدُ بالفعل أضخم المصادر الدينية الخاصة بالعالم الآخر فى مصر القديمة، وقد اشتملت على العديد من المخاطر التى تعترض الموتى فى العالم الآخر.

مناظر ونصوص كتاب الطريقين:

يتميز كتاب الطريقين عن المصادر التى سبقتهُ – نصوص الأهرامات ونصوص التوابيت- أنه أول المصادر المصرية القديمة التى اشتملت على مناظر مصورة للعالم الآخر ، والعديد من مخلوقاته وطرقه وبحيراته، وكذلك أحداثهِ العنيفة ومهابته، والتى تصيب كل من يرحل الى هذا العالم من المدانين محملاً بما قَدَمَ لحياتهِ من الشرور على الأرض ، ولم يتسلح بالتعاويذ التى تُتلى لتخطى تلك العقبات، حيث أنه فى هذا العالم لم يكن يُسمح بالعبورِ إلا للمبرئين الذين اتبعوا الماعت فى حياتهم. كما أنهم قد يُصبحون أصدقاءً للمعبود أوزير ويحاكمون الأعداء، حيث أنهم فى دنياهم كانوا دوماً فى جانب الحق والعدل حيثُ أوزير وما يرضاه. وهذا الأمر تحديداً يشملُ كذلك نصوص الأهرامات، والتى فيها يكونُ الملكُ - كممثل للبشر فى صحبة الإله رع فى السماء ، ويحكم بجانبه فى قاربه.

أشارت مناظر ونصوص " كتاب الطريقين " فى أقسامه التسعة إلى العديد من المخاطر والعقبات التى تُعيق المُدانين فى العالم الآخر. ومن ذلك المناطق المشتعلة، والطرق المتقاطعة المُضَلِلَة التى تُفضى إلى النار، والتى تحيط بالطريقين البرى والمائى ، حيث توصى النصوص المتوفى بتجبنها فهى طرق لا يسلكها إلا الهالكون. كما برزَ كذلك العمل الشاق فى العالم الآخر، و بالمثل العواصف التى تُسلط على المُدانين .

مما سبق نتبين أن تأثير كتاب الطريقين قد امتد ليشمل مصادر عصر الدولة الحديثة ، وهذا التأثير لم يقتصر على كتاب الموتى فحسب بل امتد التأثير ليشمل كذلك كتب العالم الآخر من هذا العصر ، كما فى كتاب الإمى – دوات (وغيره من الكتب الدينية) ، فكتاب الطريقين تتنتظم مناظره فى الجزء الأوسط منها فى ثلاثة أقسام أفقية، تشتمل على بوابات عديدة بأسمائها وأوصافها وكذلك أسماء حراسها، كما أن مركب الشمس تتخذ بدايتها ونهايتها شكل رأس أفعى، وتشتمل المناظر فيه كذلك على صور الكائنات أو المخلوقات التى تجر المركب خلال العالم الآخر. بالإضافة إلى ممراتٍ وطرقٍ كان على المتوفَى عبورها فى العالم الآخر"

وكما أن لكتاب الطريقين جدوى بالنسبة للأحياء فإن كتاب الإمى – دوات كانت له كذلك نفس الخاصية، حتى أنه يمكن القول بأن كتاب الطريقين إنما هو نسخة مبكرة " لكتاب الإمى – دوات " غير أنه يفتقد الترتيب الخاص بالأخير. فهذا الكتابان ليسوا فقط يشبه أحدهما الأخر، بل ثمة علاقة داخلية بينهما – وإن كانت تلك العلاقة تختص بأجزاء معينة لكلا الكتابين – لاسيما القسمين الرابع والخامس حيثُ طرق روستاو .

مناظر ونصوص كتاب الموتى:

أما كتاب الموتى فيُعد ثانى المصادر المصرية القديمة – بعد كتاب الطريقين – التى اشتملت على بعض المناظر التوضيحية المرافقة للنصوص. ويلاحظ فى هذا المصدر كذلك اشتماله على عناوين دقيقة ومحددة إلى حد كبير ، ومن ثُم بإمكاننا الاستعانة _ بعد الله عزوجل _ بتلك العناوين فى محاولة الوصول إلى مضامين تلك الفصول فيما يخُصُ العالم الآخر، وأحوال ساكنيه بنوعٍ من التفصيل.

وإن كانَ " هيرمان كيس " يرى أن هذه العناوين قد استُحدِثَت بشكلٍ ثانوى، ومن ثُم فإنها كانت – وفى كثيرٍ من الأحيانِ – لا تدل على المضمونِ بشكلٍ واضح ، كما يُلاحظ أنه فى هذه العناوين تم التركيز على الفقرةِ الختاميةِ – أو بمعنى آخر بعض الجزئيات الصغيرة – وهو الأمر الذى نتج عنه فى رأيهِ نوعٌ من الخطأ الواضح بين توظيف تلك العناوين و محتويات النص.

كما يذكُرُ البعض فى هذا الصدد أن النسخ المختلفة والتى اشتملت على مناظر توضيحية لنصوص كتاب الموتى تزودنا بحقيقةٍ ثابتة، وهى أن مملكة الموتى فى الفكر المصرى القديم تسكنها أعداد غفيرة من مخلوقات ما وراء الطبيعة، وهذه المخلوقات يمكن تصنيفها أو وضعها فى مرتبة وسطى بين المعبودات والبشر.

ومن فصول هذا الكتاب_ والتى اشتملت على بعض التفاصيل الخاصة برحلة المتوفى خلال العالم الآخر_ تلك الفصول التى تتعلقُ بِسُبُلِ تغلب المتوفى على خصومهِ أمام محكمة العالم الآخر، والفصول الخاصة بمواجهة التماسيح و الثعابين فى العالم الآخر، وكذلك تلك الخاصة بمنع الموت مرة أخرى فى العالم الآخر، وبالمثل التعاويذ الخاصة بمنع التعفن وكذلك

انعكاس عملية الهضم فى العالم الآخر، وبالمثل الفصول التى تؤكد على توفير مركبة للعبور فى مملكة الموتى.

ويأتى فى مقدمة تلك الفصول الخاصة بالحساب الأخروى، الفصل رقم (١٢٥) الخاص بمحاكمة العالم الآخر، بجانب ذلك الابتكار الخصب المتعلق بالمسئولية الخلقية فى الاعترافات الإنكارية الخاصة بذلك الفصل، بالإضافةِ إلى الفصل (١٧٩) الموجه ضد الأعداء فى العالم الآخر .

كما تشير العديد من فصول كتاب الموتى إلى بواباتٍ وأبهاء كمراحلٍ على الروحِ اجتيازها، ولكلٍ منها حارس قوى على المتوفى أن يَذكُرُ اسمه. ولعل هذا الاعتقاد بتقسيم العالم الآخر إلى أقسامٍ منفصلةٍ قد تمت الإشارة إليه فى نصوصٍ جنائزيةٍ أخرى سابقة، كما هو الحال فى نصوص الأهرام ونصوص التوابيت. كما ركزت بعض الفصول على حماية الجسد من الهوامِ، واستعادة مميزات الجسم كجسدٍ حى، فى حِينِ وُجِهَت أُخرى نحو منع انتزاع القلب من الجسد.

كما وُجِهَت تعاويذ معينة لتأكيد حصول المتوفى على الهواء فى العالم الآخر، أُطلق على معظمها " تعاويذ لتمكين المتوفى من استعادة التنفس مرة أخرى فى العالم الآخر ". فبنهاية الحياة من خلال الموت كان يُخشى على المتوفى أن يفتقد للطعام فى العالم الآخر ويعانى الجوع. أما الأبرار فكانوا يتفاخرون بأن حقول النعيم كانت مليئة بمختلف أنواع الأطعمة. ومن ثم فقد ركزت التعاويذ المختلفة على توفير الطعام للمتوفى، بل إن بعضها كان ينفى وجود هذا الأمر من الأساس فى العالم الآخر، حيث ورد فى نصوص الأهرامات: " إن الأرض التى يذهب إليها (الملك) ليس بها عطش ، وأنه لن يعانى الجوع أبداً ". كما صِيغت تعاويذ خاصة تعمل على تمكينِ المتوفى من أكل الخبز فى العالم الآخر ".

كما أشارت نصوص كتاب الموتى إلى أن طرق العالم الآخر قد حُفت بالمخاطر والمهالك التى من شأنها إيذاء المدانين، ومن ثم نجدهم قد حرصوا على التأكيد على اجتياز تلك الطرق والممرات بسلام دونما إيذاءٍ أو هلاك. كما وردت كذلك إشارات إلى بعض البحيرات الخطيرة

التى اشتملت على أنواع من العذاب مثل بحيرة النار المزدوجة، والتى ذكرتها النصوص بأنها ليس بها ما يُبهج أو يُفرح، بل بها جميع صُنوف العذاب.

يتضح لنا مما سبق أن مناظر نصوص كتاب الموتى قد احتوت على العديد من صور العالم الآخر كمرحلةٍ انتقاله من نصوص الأهرامات ونصوص التوابيت إلى الكتب الدينية، والتى باتت تُسجلُ على جدران المقابر خلال عصر الدولة الحديثة ، وهذه النصوص الخاصة بكتاب الموتى تساهم بشكلٍ كبيرٍ فى تكوين صورة واضحة لما تكون عليه الحياة فى العالم الآخر. مع مراعاة أن تتبعِ أحوال الموتى والمخاطر التى يواجهونها فى هذا العالم كحلقةٍ متصلة لم يظهر هو الآخر فى مناظر ونصوص كتاب الموتى. ومن هذه المخاطر الموت مرة أخرى فى العالم الآخر وتلاشى الجسد وتعفنه، وكذلك حبس الروح ومنع خروجها من المقبرة _ وهى من أبشع العقوبات _ حتى تفنى وكأنها ما خُلِقَت، وكذلك الختم على فم المذنب فلا يَقوى على رد القول أو الحديث، وهو وإن نجا مما سبق، تُغلق فى وجههِ أبواب السماء، وتُرَدُ روحه عن الصعود ، كما تخورُ قواهُ، ويصبحُ لا حول له ولا قوة فى العالم الآخر.

يُضاف إلى ما سبق أنه لم يكن هناك أدنى شك فى ما يتعلق بنجاحِ الروح فى إتمام تلك الرحلة ، ذلك أن البرديات كانت عادة ما تحوى عبارة : " أنهُ من كُتبت له تلك التعاويذ فإنه سوف يكونُ قادراً على التغلبِ على جميع العقبات ويصل بسلام إلى مملكة أوزيريس ". ومن ثم فقد أصبح الرحيل إلى العالم الآخر كما لو كان امتحاناً عُرِفَت أسئلته وتمت الإجابة عليها قبل دخوله. كما كان الاعتقاد بتأثير التعاويذ السحرية على الأحداثِ كان راسخاً فى معتقدات المصريين القدماء الدينية بصفةٍ عامة. وفى هذا الصدد يُذكَرُ أنه على الرغمِ من السمو الأخلاقى الذى تنطوى عليه مثل تلك الأفكار ، فإن الأمر فى حقيقته لا يحملُ أية مفاهيم رفيعة أو سامية، فعلى سبيل المثال: النص المصاحب للمشاهِد الخاصة بالمحاكمة لا يتضمن أى استجواب للمُدَعَى عليه ، بل أن الأمر لا يعد كونِهِ بعض التصريحات التى يُعبِرُ عنها الميت، وتنطوى على برائتِهِ من كل المخالفاتِ الأخلاقيةِ العامة، أو القوانين المقدسة وكذلك مُختلف الجرائم . فالسمو الأخلاقى يتحقق عندما يكون هناك استجواباً للمتوفى، يشمل كل جوانب حياتِهِ وأسرارِه، وليس مجرد حكم بالبراءة ، يَنبَنى على تصريحات الميت ذاته.

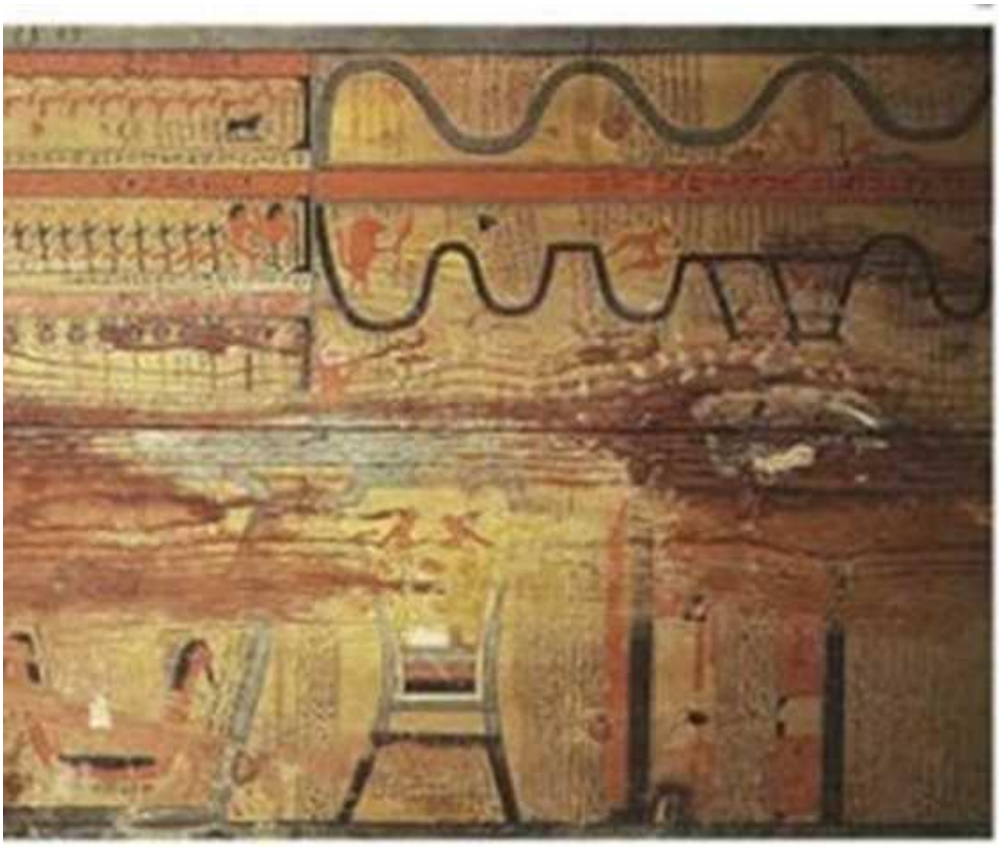

alamy stock photo

فى المحاضرة القادمة:

الموت:

المحاكمة فى العالم الآخر:

الماعت:

القلب:

المكان الذى تنعقدُ فيهِ المحاكمة: